

المبادئ العشرة لعلم التصوف ﴿3﴾



أهداف الدرس

1. أن أتعرف فضل علم التصوف .
2. أن أدرك نسبة علم التصوف لغيره من العلوم .
3. أن أسعى لتحقيق ثمرة علم التصوف علميا وعمليا .

تمهيد

مما يعين على تحصيل العلوم إدراك مبادئها العشرة؛ إذ بها تُعرف حقيقة العلم، وموضوعه، وواضعه، واسمه، واستمداده، وحكم الشارح فيه، ومسائله، وفضله، ونسبته، وفائده، وقد سبق بيان سبعة من المبادئ العشرة، وفي هذا الدرس تنمّة ما بقي منها، شرفاً، ونسبة، وفائدة. فما فضل موضوع التصوف؟ وما نسبته لغيره من العلوم؟ وما فائده وثمرته؟.

نص الانطلاق

1- قال الإمام القشيري -رحمه الله- في رسالته التي كتبها إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام «أما بعد: رضي الله عنكم فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه، صلوات الله وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسرارهم، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنوارهم. فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق. صفاهم من كدورات البشرية، ورقاهم إلى محال المشاهدات بما تجلّى لهم من حقائق الأحدية. ووقفهم للقيام بأداب العبودية، وأشهد مجاري أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقلب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار، ونعت الانكسار، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من

الأعمال ، أو صفا لهم من الأحوال ، علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ، ويختار من يشاء من العبيد». [الرسالة القشيرية، ص 15].

2- قال الشيخ ابن عجيبة -رحمه الله- «علم التصوف هو سيد العلوم ورئيسها ، ولباب الشريعة وأساسها ، وكيف لا وهو تفسير لمقام الإحسان الذي هو مقام الشهود والعيان ، كما أن علم الكلام تفسير لمقام الإيمان ، وعلم الفقه تفسير لمقام الإسلام . وقد اشتمل حديث جبريل عليه السلام على تفسير الجميع ؛ فإذا تقرر أنه أفضل العلوم تبين أن الاشتغال به أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى ؛ لكونه سببا للمعرفة الخاصة التي هي معرفة العيان ، وقد اشتمل على حقائق عريقة ، وعبارات دقيقة اصطلاح القوم على استعمالها ، فينبغي الوقوف على معانيها لمن أراد الخوض فيه والوقوف على معانيه» [معراج التشوف إلى حقائق التصوف ، ص 25].

الفهم

استخلاص المضامين:

- أستخلص من النصين منزلة علم التصوف بين العلوم ، ومناقب التصوف وفضائله.

الشرح:

- **المشاهدة:** توالي أنوار التجلي على القلب من غير أن يتخللها انقطاع .

- **الحال:** معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ، ولا تسبب ولا اكتساب .

- **المقام:** ما يتحقق به العبد بمنازلة واجتهاد .

التحليل

ثامنا: فضل علم التصوف وشرف موضوعه

من فوائد معرفة فضل علم التصوف ازدياد الرغبة فيه ، والاندرج في أهله؛ ذلك أن «العلم بفائدة الشيء ونتيجته باعث على التهمم به والأخذ في طلبه ، لتعلق النفس بما يفيدها إن وافقها ، وإلا فعلى العكس» [قواعد التصوف، ص 36] وفضل علم التصوف وشرفه من شرف ما يتعلق به ، قال الشيخ ابن عجيبة -رحمه الله- «موضوعه الذات العلية ، وهي أفضل على الإطلاق ، فالعلم الذي

يتعلق بها أفضل على الإطلاق؛ إذ هو دال بأوله على خشية الله تعالى، وبوسطه على معاملته، وبآخره على معرفته والانقطاع إليه، ولذلك قال الجنيد: لو نعلم تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه» [إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 22]. ففضله من فضل ما تعلق به، وشرفه بما يحققه ويؤدي إليه «وقد صح أن شرف الشيء بشرف متعلقه، ولا أشرف من متعلق علم التصوف؛ لأن مبدأه: خشية الله التي هي نتيجة معرفته، ومقدمته اتباع أمره، وغايته: إفراد القلب له تعالى» [قواعد التصوف، ص 36].

ويكفي علم التصوف فضلا وشرفا أنه سبب السعادة في الدارين، وسبيل تحقيق الطمأنينة في الدنيا، والفلاح في الآخرة، به تزكى الأنفس، ويصلح الفرد والمجتمع، بما يورثه من قيم نبيلة، وأخلاق سامية، وقد اجتمعت كلمة أربابه على أن التصوف هو الخلق، وهو الدليل والمرشد الموصل إلى رب العالمين، وهو كما قال الشيخ ابن عجيبة -رحمه الله- «يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليلتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة» [معراج التشوف إلى حقائق التصوف، ص 4] وإن علما هذه وظيفته ومنزلته جدير به أن يتبوأ مقاما عليا بين العلوم، وبه يتحقق مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين، ولله در الإمام الغزالي رحمه الله إذ قال: «هذا العلم طب القلوب والأرواح المتوصل به إلى حياة تدوم أبد الآباد فأين منه الطب الذي يعالج به الأجساد وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد» [إحياء علوم الدين، ص 5].

تاسعا: نسبة علم التصوف لغيره من العلوم

العلوم الإسلامية بعضها مرتبط ببعض، وتتفاوت العلاقة بينها باختلاف مسائل كل علم وغايته، وقد قرر العلماء أن «العلوم المعينة على تنوير القلب أربعة: أولها: علم التوحيد والإيمان، الثاني: علم الفقه والأركان، الثالث: علم التصوف والأحوال، الرابع: علم الإيضاح والدلالة والبيان والتحقيق» [عدة المريد الصادق، ص 51]. وكلها يحتاجها العبد لتتم له معاني العبودية لله تعالى «وما من علم إلا وقد يقع الاستغناء عنه في وقت ما إلا علم التصوف، فلا يستغني عنه أحد في وقت من الأوقات» [إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 21] ذلك أنه بالعقائد تصلح المعتقدات، وبالتصوف تصلح المعاملات، وبهما تتحقق استقامة العبد بين يدي الرب سبحانه جل في علاه.

والتصوف باعتبار ما يُعنى به من صفاء، وصدق، وإخلاص؛ فإنه يتصل بمختلف العلوم ويتكامل معها؛ ذلك أن «نسبته من العلوم هو كلي لها، وشرط فيها؛ إذ لا علم ولا عمل إلا بصدق التوجه إلى الله تعالى، فالإخلاص شرط في الجميع، هذا باعتبار الصحة الشرعية والجزاء والثواب، وأما باعتبار الوجود الخارجي فالعلوم توجد في الخارج بدون التصوف، لكنها ناقصة أو ساقطة، ولذلك قال السيوطي: نسبة التصوف من العلوم كعلم البيان مع النحو، يعني هو كمال فيها ومحسن لها» [الأزهار الطبية النشر، ص 159] وفضلا عن منزلته المستقلة بين العلوم؛ فإن له علاقة خاصة بكل علم.

قال الشيخ زروق -رحمه الله- «اعلم أن الفقه والتصوف أخوان في الدلالة على أحكام الله سبحانه؛ إذ حقيقة التصوف ترجع لصدق التوجه إلى الله تعالى من حيث يرضى بما يرضى...، ونظر الفقيه مقصور على ما يسقط به الحرج، ونظر الأصولي مقصور على ما يصح به الأصل الذي هو الإيمان، ونظر الصوفي متعدد لما يحصل به الكمال، فيطلب في باب الأصول على تحلية الإيمان بالإيقان حتى يصير في معد العيان، وفي باب الفقه على أن يأخذ بالأعلى أبدا، ثم له حكم يخصه فيما يخصه، ومدار الأمر فيه على اتباع الأحسن والأكمل، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: 17]» [عدة المرید الصادق، ص 51].

وبيان نسبة علم التصوف لغيره من العلوم لا يعني انفصاله عنها، بل هو أمانة التلازم والاشتراك؛ ذلك أن «الاشتراك في الأصل يقضي بالاشتراك في الحكم، والفقه والتصوف شقيقان في الدلالة على أحكام الله وحقوقه، فلهما حكم الأصل الواحد في الكمال والنقص؛ إذ ليس أحدهما بأولى من الآخر في مدلوله» [قواعد التصوف، ص 51]. فالتصوف تحتاجه مختلف العلوم كما أن التصوف أيضا بحاجة إلى تلك العلوم، وعلى سبيل المثال «الفقه مقصود لإثبات الحكم في العموم، فمداره على إثبات ما يسقط به الحرج، والتصوف مرصده طلب الكمال، ومرجعه لتحقيق الأكمل حكما وحكمة، والأصول شرط في النفي والإثبات فمدارها على التحقيق» [قواعد التصوف، ص 62].

عاشرا: ثمرة علم التصوف

ذكر العلامة ابن حمدون -رحمه الله- أن ثمرة علم التصوف وفائدته «معرفة آداب العبودية اللائقة بين يدي الربوبية؛ إذ التصوف كله آداب» [الأزهار الطبية النشر، ص 158] حيث يورث في الإنسان صلاحا في الأقوال والأفعال، واستقامة في السلوك، وصفاء في الباطن، وصلاحا في



الظاهر، قال الإمام البيجوري -رحمه الله- «وفائده: صلاح أحوال الإنسان لما فيه من الحث على تصفية الاعتقاد وكمال الأعمال بالسداد» [تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، ص 229]. فثمرته تحقيق العبودية، وتعظيم الربوبية، وإقامة الحقوق، والإعراض بالحق عن المخلوق، وفيه تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية، وبه تتحقق تصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بالفضائل.

قال العلامة ابن حمدون -رحمه الله- «وأما فائده فإفراد القلب لله سبحانه وناهيك به شرفاً، وهذا للمخلصين، فيحصل لهم بالانكباب عليه مزايا عظيمة، منها تقوية أنوار الإيمان واليقين؛ لأن لكلام القوم صولة تُحقِّق الحق وتبطل الباطل، ونورا تاما لبروزه من قلوب منورة، وكل كلام يبرز عليه كسوة القلب الذي منه برز» [الأزهار الطيبة النشر، ص 158]. ولا تقتصر ثمرته على حسن الأدب مع الخالق بل يشمل ذلك حسن الأدب مع المخلوق أيضا، وذلك بما يتحقق به من «تهذيب القلوب ومعرفة علام الغيوب، أو تقول: ثمرته سخاوة النفوس، وسلامة الصدور، وحسن الخلق مع كل مخلوق» [إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 22] كما تتحقق به رياضة النفس وتزكيتها «فبعلم التصوف يتوصل إلى قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بذلك إلى تخلية القلب من غير الله وتحليته بذكره سبحانه» [الدر الثمين والمورد المعين، ص 545].

ونخلص بهذا إلى أن علم التصوف متصل بمختلف العلوم ابتداء وانتهاء، قال الإمام البيجوري -رحمه الله- «والحق أن التصوف ثمرة جميع علوم الشريعة، وليس قواعد مخصوصة مدونة» [تحفة المريد، ص 230]

التقويم

1. أوضح فضل علم التصوف وشرف موضوعه.
2. أبين نسبة علم التصوف إلى غيره من العلوم.
3. أضع فوائد وثمار علم التصوف في خطاطة وأعرضها أمام زملائي.



الاستثمار

قال الإمام الشاطبي - رحمه الله -: «ومن ههنا يفهم شأن المنقطعين إلى الله فيما امتازوا به من نحلته المعروفة؛ فإن الذي يظهر لبادئ الرأي منهم أنهم التزموا أموراً لا توجد عند العامة، ولا هي مما يلزمهم شرعاً؛ فيظن الظان أنهم شددوا على أنفسهم، وتكلفوا ما لم يكلفوا، ودخلوا على غير مدخل أهل الشريعة. وحاش لله! ما كانوا ليفعلوا ذلك، وقد بنوا نحلته على اتباع السنة، وهم باتفاق أهل السنة صفوة الله من الخليقة» [الموافقات، للشاطبي، ص 239].

أعد موضوعاً فكرياً أوسع فيه مضامين النص .

الإعداد القبلي

أبحث عن مؤلفات العلماء المغاربة في التصوف وأستخرج اسم كتاب من كتبهم في التصوف ، وأعرف به وبصاحبه .